خطبة بعنوان: الرشوة والمحسوبية وخطرهما على الفرد والمجتمع

عناصر الخطبة:

العنصر الأول: الرشوة وخطرها على الفرد والمجتمع

العنصر الثاني: المحسوبية وخطرها على الفرد والمجتمع

العنصر الثالث: تحرى أكل الحلال

المقدمة: أما بعد:

العنصر الأول: الرشوة وخطرها على الفرد والمجتمع

إن من أشد الأمراض التي ابتلى بها المجتمعات مرض الرشوة.

والرشوة هي: ما يعطى لإبطال حق، أو إحقاق باطل.

أما إذا كان المال المدفوع، لأجل الحصول على حق حجب عنه أو لدفع باطل وظلم سيحيق به أو أحاق به؛ فجائز ؛ كأن تدافع عن دينك ودمك ومالك فليس بحرام؛ فالحرام أن تدفع مالاً لتحصل ما ليس لك أو لتتهرب من أداء حقٍ يلزمك أداؤه.

عباد الله: إن داءَ الرشوة داءٌ عضال، أمرٌ محرَّم شرعًا بكتاب ربنا وبسنة نبينا -صلى الله عليه وسلم- وبإجماع المسلمين، والله يقول في كتابه العزيز: {ياأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْولَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ} [النساء:29]، فالرشوة أخذُ مال بالباطل، وأخذ مالٍ بلا سبب، وأخذ مالٍ بلا موجب، وإنما هو ظلمٌ وعدوان وإساءةٌ ودناءة وسوءُ فعل، وهو سحتٌ كما قال الله في حق اليهود: {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ} [المائدة:42]، وقد فسَّر الصحابة السحت بأنه الرشوة، كما فسّره عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-، وأن قوله: { أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ} أن اليهود من أخلاقهم تعاطي الرشوة والسعي فيها، فالرشوة سحتٌ، والسحتُ خبيث، وكلّ جلد نبت من سحت فالنار أولى به. لذلك: "لعن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الراشي والمرتشي". (رواه أبو داود والترمذي)

إن الرشوة تخفي الجرائم، وتستر القبائح، وتزيف الحقائق.

بالرشوة يفلت المجرم، ويدان البريء، بها يفسد ميزان العدل الذي قامت به السماوات والأرض، وقام عليه عمران المجتمع، هي المعول الهدام للدين والفضيلة والخلق.

الرشوة -أيها الناس- تلبس عند أهلها ثيابًا مستعارة، فتأخذ صورًا متلونة، وأغراضًا متعددة، فهذه هدية، وتلك إكرامية، وهذه محاباة في بيع أو شراء، وذلك إبراء من الدين، والصور في ذلك لا تتناهى، وسبل الشياطين وأعوانهم في ذلك عريضة واسعة، في القطاع العام والقطاع الخاص، وفي المؤسسات وفي الشركات.

أما أغراضها عندهم فمتعددة: طمس لحق أو سكوت على باطل، وتقديم لمتأخر وتأخير لمتقدم، ورفع لخامل، ومنع لكفءٍ، وتغيير للشروط، وإخلال بالمواصفات، وعبث بالمناقصات، وتلاعب في المواعيد، في أغراض لا تتناهى.

أما الراشي والمرتشي والرائش فإنهم –لا بارك الله فيهم ولا لهم– متساعدون على تضييع الحقوق، ويروجون لأكل أموال الناس بالباطل، ويزرعون السيئ من الأخلاق، ومن ثم تستمرئ الأمة هذا المرعى الوبيل.

الراشي والمرتشي والرائش ملعونون عند الله على لسان رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، مطرودون من رحمة الله ممحوق كسبهم، زائلة بركتهم، خسروا دينهم وأضاعوا أمانتهم، استسلموا للمطامع، واستعبدتهم الأهواء، وأغضبوا الرب، وخانوا الإخوان، وغشوا الأمة، في نفوس خسيسة وهمم دنيئة.

أيها الإخوة: لقد استهان كثير من الناس بهذا الباب الخطير، وهو سبب فساد الذمم، وشراء الضمائر، والمماطلة في الحقوق، والتقاعس عن أداء الواجبات إلا برشوة أو هدية أو خدمة يبذلها صاحب الحق، بصور عديدة؛ وأغراض خسيسة.

ومن تلك الصور تعاطى الرشوة محاباة ومجاملة لإحقاق باطل أو إبطال حق كما هو شائع في المصالح الحكومية، فقد أخْرَج الشيخان من حديث أبي حميد الساعدي – رضي الله عنه – قال: "استعمَلَ النبي – صلى الله عليه وسلم – رجلاً من الأزد يُقال له: ابْن اللُّتْبِيَّة على الصَّدَقة، فلمَّا قَدِم، قال: هذا لكم وهذا أُهْدِي إليّ، قال رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: "فهلاَّ جَلَس في بيت أبيه أو بيت أُمِّه، فينظر يُهْدَى له أم لا؟ والذي نفسي بيده، لا يأخذ أحدٌ منه شيئًا إلاَّ جاء به يومَ القيامة يَحمله على رَقَبته؛ إن كان بعيرًا له رُغَاء، أو بقرة لها خُوَار، أو شاة تَيْعَر"، ثم رفَعَ يدَه؛ حتى رأْينا عُفْرَة إبطَيْه: "اللهمَّ هل بلَّغْت، اللهم هل بلَّغْت ثلاثًا"

، قال الخطابي رحمه الله: "في هذا بيان أن هدايا العمال سُحت، وأنه ليس سبيلها سبيل الهدايا المباحة، وإنما يُهدى إليه للمحاباة، وليخفِّف عن المهدي، ويُسوِّغ له بعض الواجب عليه، وهو خيانة منه، وبخس للحق الواجب عليه استيفاؤه لأهله" انتهى، وقال الشوكاني رحمه الله: "إن الهدايا التي تُهدى للقضاة ونحوهم هي نوعٌ من الرشوة؛ لأن المهدي إذا لم يكن معتاداً للإهداء إلى القاضي قبل ولايته لا يهدي إليه إلا لغرض، وهو إما التقوِّي به على باطله، أو التوصل بهديته إلى حقه، والكل حرام".

وذكر ابنُ كثيرٍ في تاريخه أن جيشَ المسلمين لما ظفَروا بالنصرِ على إقليمِ تركستان وغنِموا شيئًا عظيمًا أرسَلوا معَ البُشرى بالفَتح هدايا لعُمر –رضي الله عنه–، فأبَى أن يقبَلَها، وأمر ببَيعها وجعلها في بيت مال المسلمين.

وفي قصةِ عبد الله بن أبي رواحة لما بعثَه النبيُّ –صلى الله عليه وسلم– خارِصًا على يهودِ خيبر، فجمعوا له حُليًّا من حُلِيِّ نسائِهم، فقال: إنّكم من أبغَض خلقِ الله إليَّ، وما ذاكَ بحامِلي على أن أَحيفَ عليكم، أمَّا ما عرضتُم مِنَ الرِّشوة فإنها سُحتٌ، وإنَّا لا نأكُلُها، فقالوا: بهذا قامَت السماوات والأرض.

وفي مُعلَّقاتِ البخاري الموصُولة عند غيره: ما جاء أنَّ عمر بنَ عبد العزيز –رحمه الله– اشتَهى التفاحَ، فلم يجِدوا في بيتِه ولا ما يشترِي به، فخرَج وهو الخليفةُ آنذاك، فتلَقَّاه غلمانٌ بأطباق التفّاح، فتناوَل واحدةً فشَمَّها ثم ردَّها إلى الأطبَاق، فقيل له في ذلك، فقال: لا حاجة لي فيها، فقيل له: ألم يكن رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم– وأبو بكر وعمَر يقبَلون الهديّة، فقال: "إنها لأولئك هديّة، وإنها للعُمَّال بعدهم رِشْوة".

فإن كانت الهدية تبذل لمن يحكم بين الناس كالقاضي ونحوه فالإثم أكبر، والخطر أشد؛ لما يلحقه من تهمة تغيير أحكام الله تعالى، ورفضه للعدل، وإقراره للظلم بسبب ما أهدي إليه.

عباد الله: إن الغرب – مع أنه غير مسلم – ينهى عن الرشوة؛ وذلك لآثارها على جميع الأصعدة، وإذا انتشرت دمرت بقاع الأرض، وقد وقع نظري على نداءات وصرخات من بعض ساسة العالم ممن لا يدينون بالإسلام، ينددون ويحذرون من هذه الجريمة ويصفونها بأنها الفساد والدمار الاقتصادي، ولعلي أذكر بعضًا من أقوالهم:

يقول ستيوارت –وهو وكيل وزارة الخارجية للشؤون الاقتصادية والتجارية والزراعية الأمريكية –: "إن الفساد يلحق ضررًا بالتنمية الاقتصادية والإصلاح".

ويقول إيليانور روبرتس لويس –رئيس قسم المستشارين لشؤون التجارة الدولية في وزارة التجارة الأمريكية–: "إن الفساد والمحسوبية كانا عاملين مهمين في الأزمة الاقتصادية الآسيوية".

ويقول ج. براين أتوود –مدير الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية–: "إن الفساد تحدٍّ متواصل للتنمية".

ويقول دونالد سترومبوم: "إن الرشوة في عقود المشتريات الحكومية تشكل لب الفساد".

فإذا كان هؤلاء – مع أنهم غير مسلمين – ينادون بالحفاظ على النظام الاقتصادي لديهم، فإن أمة الإسلام أولى بالاستجابة لنداء ربها ودعوة رسولها بأكل الطيب والبعد عن أكل السحت وهجر آكليه وعدم ملاقاتهم ومؤاكلتهم ومشاربتهم حتى يرعووا عن إفكهم وما كانوا يأكلون.

عباد الله: ومما يحمد في هذا المقام ذكر آثار هذه الآفة وهذا السم الزعاف وأضرارها، فإن لجريمة الرشوة آثارًا خطيرة وعواقب وخيمة على الفرد والمجتمع، ويمكن أن نجمل بعضها فيما يلي:–

– توسيد الأمر لغير أهله: إن الإنسان حين يدفع رشوة للحصول على وظيفة معينة لا تتوافر فيه مقوماتها وشروطها فهو ليس أهلاً لهذه الوظيفة، ما يترتب عليه قصور في العمل والإنتاج وإهدار للموارد.

– تدمير المبادئ والأخلاق الكريمة: إن انتشار ظاهرة الرشوة في مجتمع من المجتمعات يعني تدمير أخلاق أبناء هذا المجتمع، وفقدان الثقة بين أبنائه، وانتشار الأخلاقيات السيئة كالتسيب واللامبالاة، وفقدان الشعور بالولاء والانتماء، وسيطرة روح الإحباط.

– إهدار الأموال وتعريض الأنفس للخطر: فلو تخيلت أن الرشوة قد سادت في مجتمع حتى وصلت إلى قطاع الصحة وإنتاج الدواء، فكيف ستكون أحوال الناس الصحية حين يستعملون أدوية رديئة أُجيز استعمالها عن طريق الرشوة؟!

– ومن آثارها وبؤسها على صاحبها أنها تمنع استجابة الدعاء، وروى مسلم عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا}، وقال تعالى: ({يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}". ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام، وغذي بالحرام، "فأنى يستجاب له". وقال ابن عباس: "لا يقبل الله صلاة امرئ في جوفه حرام".

أسوق لكم هذه القصة الواقعية تؤيد هذا الكلام لرجل الأمن الذي هو رمز للأمان والشعور بالحماية والدفاع عن حقوق المواطنين!!!

عمل هذا الرجل في المراقبة الطرقية وتنظيم حركة المرور والسهر على سلامة المواطنين؛ لكن ما أن تقع يده على مخالفة ما حتى يحاول أن يضرب له بسهم منها ويأخذ عن ذلك رشوة من المواطنين وكأنه حقه الشرعي, فيجمع من خلال ذلك المال الحرام, لكنه المسكين كان له طفل كثير المرض ما أن يعافى من مرض حتى يسقط طريح الفراش مرة أخرى, وكأن الله يرسل إليه إنذارا لعله يقلع عن أكله أموال الناس بالباطل, استمر هذا الرجل على هذه الحال يأخذ من هنا ويمرض له ولده من هناك, حتى جاءت البشرى من عند الله حيث اشتكى حالة ابنه هذه لصديق له فكان خير صديق فنصحه بأن يقلع عن أخذ الرشوة كي يشافى ابنه, قبل هذه النصيحة وأصر على ألا يدخل على بيته فلسا من حرام, فاشترى لحما من خالص عمله وأدخله على بيته وحين تناوله ابنه تلفظ قائلا: يا أبي أول مرة في حياتي أتذوق لذة اللحم!!! ازدادت قناعته وإيمانه فتاب إلى الله توبة نصوحا فشفى الله ابنه من مرضه.

وهذا ليس قاصرا على شرطي المرور؛ ولكن قس على ذلك كل وزارات ومؤسسات الدولة.

اللهم تب علينا كي نتوب إنك أنت التواب الرحيم.

العنصر الثاني: المحسوبية وخطرها على الفرد والمجتمع

المحسوبية: هي اعتبار القرابة العائلية أو السياسية أو المذهبية في تحقيق مصلحة ما؛ كإسناد الوظائف أو الترقيات أو غيرها، وجعل الحسب أو النسب في المقام الأول.

إن الإسلام شدد في نهيه عن المحسوبية والعصبية القبيلة وأن الجنة لا ندخلها بالأنساب ؛ فهذا أبو لهب من أشراف قبيلة قريش وكان عم الرسول "سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ "؛ وبلال بن رباح عبد حبشي أسود سمع الرسول خشخشة نعله في الجنة.

والمحسوبية والوساطة محرمة في الإسلام ولا سيما في القضاء والمظالم والقصاص والحدود.

فعن عائشةَ رضي الله عنها أنّ قُرَيْشاً أَهَمّهم شأنُ المرأةِ المخْزُوميّةِ التي سَرَقَتْ، فقالوا: "مَن يُكَلِّم فيها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ؟". فقالوا: "مَن يَجْتَرِئُ عليه إلا أُسامةُ ابْنُ زَيْدٍ حِبُّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ؟. فَكلَّمَه أسامةُ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : "أَتَشْفَعُ في حَدٍّ من حُدُود الله تعالى؟ ". ثم قام، فاخْتَطَبَ، ثم قال : "إِنَّما أَهْلَكَ الذين مِنْ قَبْلِكم أَنَّهم كانوا إذا سَرَقَ فيهم الشَّرِيفُ تَرَكُوه، وإذا سَرَقَ فيهم الضَّعِيفُ أقاموا عليه الحَدَّ، وايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فاطمةَ بِنْتَ محمدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَها". (متفق عليه)

عباد الله: كم من مظالم انتهكت، وكم من دماء ضيعت، وكم من حقوق طمست!! ما أضاعها وما طمسها إلا الساعون إلى الوساطة والمحسوبية، فحسبهم الله الذي لا تنام عينه، وويل لهم مما عملت أيديهم وويل لهم مما يكسبون.

أيها الإخوة: بفشوِّ الوساطة والمحسوبية تصاب مصالح الأمة بالشلل، وعقول النابغة بالقصم، ومواهب المفكرين بالجمود، وجهود العاملين بالفتور، وعزائم المجدين بالخور. أي خير يرجى في قوم مقياس الكفاءة فيهم ما يتزلف به المرؤوس لرؤسائه

من قرابين؟! وأي إنتاج يرتجى لأعمال لا تسير عندهم إلا بعد هدايا الراشين والمرتشين؟! نفدت ثروات، وهدمت بيوت، وأهينت نفوس، وفرقت جماعات، وارتفع باطل، وغاب حق، وما كان ذلك إلا بسبب الرشاوى المحرمة والخصومات الفاجرة والإدلاء إلى الحكام بالباطل.

من أجل ذلك ، أولى النبي – صلى الله عليه وسلم – اهتمامه بهذه القضيّة في عددٍ من الأحاديث ، منها قوله عليه الصلاة والسلام :" أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر في الأحساب؛ والطعن في الأنساب؛ والاستسقاء بالنجوم؛ والنياحة" (رواه مسلم)

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: " إنَّ أنسابكم هذه ليست بسباب على أحد، وإنَّما أنتم ولد آدم، ليس لأحد على أحد فضل إلاَّ بالدين أو عمل صالح" (رواه أحمد)

ويوم فتح مكة خطب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قائلاً : "يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية – أي تفاخرها – وتعاظمها بآبائها؛ فالناس رجلان : برٌّ تقي كريم على الله، وفاجر شقي هيّن على الله ، والناس بنو آدم ، وخلق الله آدم من تراب" (رواه الترمذي)

بل شدّد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في التحذير من هذا المسلك فقال :" ليدعنَّ رجالٌ فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكوننّ أهون على الله من الجعلان – وهي نوعٌ من أنواع الحشرات – التي تدفع بأنفها النتن" (رواه أبو داود)

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " انتسب رجلان على عهد موسى عليه السلام ، فقال أحدهما : " أنا فلان بن فلان – حتى عد تسعة – ، فمن أنت لا أم لك ؟ " ، قال : " أنا فلان بن فلان بن الإسلام " ، فأوحى الله إلى موسى عليه السلام أن هذين المنتسبين : أما أنت أيها المنتمي أو المنتسب إلى تسعة في النار ، فأنت عاشرهم ، وأما أنت يا هذا المنتسب إلى اثنين في الجنة ، فأنت ثالثهما في الجنة" [السلسلة الصحيحة – الألباني]

وحين اختصم رجلٌ من المهاجرين مع آخرين من الأنصار ، فقال الأنصاري : " ياللأنصار " ، وقال المهاجري : " ياللمهاجرين " ، وبلغ ذلك النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : " ما بال دعوى الجاهلية ؟ ، دعوها فإنها منتنة" (متفق عليه)

كما كان صلى الله عليه وسلم ينهي عن العصبية القبلية التي تولد التفرقة العنصرية في المجتمع ، والتي تؤثر سلباً علي تكافؤ الفرص وضياع الحقوق بين أفراد المجتمع الواحد؛ فقال النبي صلي الله عليه وسلم:" لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ". (أبوداود)

أحبتي في الله: أسوق لكم صورا ومواقف عن سلفنا الصالح وكيف داسوا الوساطة والمحسوبية بأقدامهم.

من تلك الصور ما رواه عبدالله بن عمر قائلاً: اشتريت إبلاً أنجعتها الحمى، فلما سمنت قدمت بها، قال: فدخل عمر السوق فرأى إبلاً سماناً، فقال: لمن هذه الإبل؟ قيل: لعبدالله بن عمر، قال: فجعل يقول: يا عبدالله بن عمر بخٍ بخ! ابن

أمير المؤمنين، قال: ما هذه الإبل؟ قال: قلت: إبل اشتريتها وبعثت بها إلى الحمى أبتغي ما يبتغي المسلمون. قال: فيقولون: ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين، اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين، يا عبد الله ابن عمر! اغد إلى رأس مالك، واجعل باقيه في بيت مال المسلمين.

ومن هذه الصور أيضاً ، منع جر المنافع بسبب النسب والمحسوبية : فعن أسلم قال: خرج عبد الله وعبيد الله ابنا عمر في جيش إلى العراق فلما قفلا مرا على أبي موسى الأشعرى وهو أمير البصرة فرحب بهما وسهل، وقال: لو أقدر لكما على أمر أنفعكما به لفعلت، ثم قال: بلى، ها هنا مال من مال الله أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين، وأسلفكما، فتبيعان به متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة، فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين، ويكون لكما الربح. ففعلا، وكتب إلى عمر أن يأخذ منهما المال. فلما قدما على عمر قال: أكلَّ الجيش أسلف كما أسلفكما؟ فقالا: لا. فقال عمر: أدّيا المال وربحه، فأما عبد الله فسكت، وأما عبيد الله فقال: ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين، لو هلك المال أو نقص لضمناه. فقال: أديا المال. فسكت عبد الله وراجعه عبيد الله. فقال رجل من جلساء عمر: يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضاً (شركة). فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحه وأخذ عبد الله وعبيد الله نصف ربح المال. قالوا: هو أول قراض في الإسلام.

أحبتي في الله: الأمثلة على ذلك كثيرة وحسبي ما ذكرت، وأترك لكم التعليق والعبرة والعظة، والمقارنة بين حال هؤلاء الأخيار؛ وواقعنا المعاصر وما يحدث فيه من مجاملات ومحسوبيات ووساطة ورشاوى واختلاس وسرقة للمال العام، بسبب منصب أو جاه أو نسب أو صداقة أو قرابة أو خلافه؛ وكأن مال الدولة أصبح غنيمة للطامعين.

العنصر الثالث: تحرى أكل الحلال

كثير من الناس يهتم بجمع المال دون النظر إلى مصدره أمن حلال أم حرام؟!! ألا فليسارع كل منا إلى تحرى الحلال؛ ألا فليتق الله تعالى كل عبد ولي ولاية صغيرة كانت أم كبيرة، وليؤد الأمانة في ولايته، وليحذر من بخس الحقوق، واستحلال الرشاوى باسم الهدايا؛ فإن العبرة بالمعاني لا بالمسميات.

قال أصحاب جندب بن عبد الله رضي الله عنه له: أوصنا، فقال رضي الله عنه: "إِنَّ أَوَّلَ ما يُنْتِنُ من الإِنْسَانِ بَطْنُهُ فَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لا يَأْكُلَ إلا طَيِّبًا فَلْيَفْعَلْ".(رواه البخاري)

فما أحوجنا اليوم –وقد كثُر الفساد وعبَدَ بعضٌ الدّرهمَ والدينارَ– ما أحوجَنا للعملِ بشريعة الإسلام، والتمسُّك بزواجر القرآن وسنّة سيّد ولد عدنان –عليه أفضل الصلاة والسلام–.

فأعدوا لما ستسألون عنه جوابا، ولا تنظروا إلى من تخوَّضوا في المال الحرام كم جمعوا؛ فإنهم زائلون عن جمعهم، وأموالهم تثقل يوم القيامة ظهورهم، ومن اغتصب شبرا من الأرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين فاحذروا ثم احذروا.

عباد الله: لتكن لكم القدوة في سلفنا الصالح في تحري الحلال، فقد ورد أن الصديق رضي الله عنه شرب لبناً من كسب عبده ثم سأل عبده فقال: تكهنت لقوم فأعطوني، فأدخل أصابعه في فيه وجعل يقيء حتى ظنَّ أن نفسه ستخرج، ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما حملت العروق وخالط الأمعاء.

وروى عبد الرحمن بن نجيح قال: نزلت على عمر ، فكانت له ناقة يحلبها، فانطلق غلامه ذات يوم فسقاه لبناً أنكره، فقال: ويحك من أين هذا اللبن لك؟ قال: يا أمير المؤمنين إن الناقة انفلت عليها ولدها فشربها، فحليت لك ناقة من مال الله، فقال: ويحك تسقيني نارًا، واستحل ذلك اللبن من بعض الناس، فقيل: هو لك حلال يا أمير المؤمنين ولحمها. فهذا مثل من ورع أمير المؤمنين عمر ، حيث خشي من عذاب الله جل وعلا لما شرب ذلك اللبن مع أنه لم يتعمد ذلك، ولم تطمئن نفسه إلا بعد أن استحل ذلك من بعض كبار الصحابة الذين يمثلون المسلمين في ذلك الأمر، بل انظر كيف فرَّق- بحلاوة إيمانه ومذاقه- بين طعم الحلال وبين ما فيه شبهة.

انظر إلى ذلك وإلى حالنا كما وصفه نبينا، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُبَالِي الْمَرْءُ مَا أَخَذَ مِنْهُ، أَمِنَ الْحَلَالِ أَمْ مِنْ الْحَرَامِ" (البخاري)

إن تحري الحلال له تأثير على نفسك وجميع جوارحك، قال سهل رضي الله عنه: من أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى، علم أو لم يعلم؛ ومن كانت طعمته حلالاً أطاعته جوارحه ووفقت للخيرات. وقال بعض السلف: إن أول لقمة يأكلها العبد من حلال يغفر له ما سلف من ذنوبه، ومن أقام نفسه مقام ذل في طلب الحلال تساقطت عنه ذنوبه كتساقط ورق الشجر.

وروي في آثار السلف أن الواعظ كان إذا جلس للناس قال العلماء: تفقدوا منه ثلاثاً، فإن كان معتقداً لبدعة فلا تجالسوه فإنه عن لسان الشيطان ينطق، وإن كان سيىء الطعمة فعن الهوى ينطق، فإن لم يكن مكين العقل فإنه يفسد بكلامه أكثر مما يصلح فلا تجالسوه. (إحياء علوم الدين: أبو حامد الغزالي)

عباد الله: حق عليكم تحري الحلال والبعد عن المتشابه والحرم، والرشاوى والوساطة والمحسوبيات، احفظوا حقوق الناس؛ أنجزوا أعمالهم أوفوا بالعقود والعهود، اجتنبوا الغش والتدريس والمماطلة والتأخير واتقوا الله جميعاً في أنفسكم وفي أولادكم لا تطعموهم الحرام فإنهم يصبرون على الجوع ولا يصبرون على حر النار، فكل جسد نبت من سحت فالنار أولى به .

إن طلب الحلال وتحريه أمر واجب، وحتم لازم، فلن تزولا قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟! فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه؛ وعن شبابه فيما أبلاه؛ وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه؛ وعن علمه ماذا عمل فيه." [صحيح الترغيب والترهيب - الألباني]

إن تعجلك بجمع المال عن طريق الحرام كان سبباً في منع الحلال من الوصول إليك، فمن استعجل الرزقَ بالحرام مُنِع الحلال، وأسوق لكم قصة رائعة تؤيد هذا الكلام: رُوِي عن علي رضي الله عنه أنه دخل مسجد الكوفة فأعطى غلامًا دابته حتى يصلي، فلما فرغ من صلاته أخرج دينارًا ليعطيه الغلام، فوجده قد أخذ خطام الدابة وانصرف، فأرسل رجلا ليشتري له خطامًا بدينار، فاشترى له الخطام، ثم أتى فلما رآه علي رضي الله عنه، قال سبحان الله! إنه خطام دابتي، فقال الرجل: اشتريته من غلام بدينار، فقال علي رضي الله عنه: سبحان الله! أردت أن أعطه إياه حلالا، فأبى إلا أن يأخذه حراما!!

هذا يذكرني بقوله صلى الله عليه وسلم:" إِنَّ الرُّوحَ القُدُسَ نَفَثَ فِي رَوْعِي : أَنَّ نَفْسًا لا تَمُوتُ حتى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَها ، فَاتَّقُوا اللهَ وأَجْمِلوا في الطَلَبِ، ولا يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعَاصِي اللهِ، فإنَّ اللهَ لا يُدْرَكُ ما عندَهُ إِلَّا بِطَاعَتِه" [السلسلة الصحيحة – الألباني]، فالسارق رزقه كان سيأتيه عن طريق الحلال ولكنه تعجله بطريق الحرام!! والمرتشي رزقه كان سيأتيه عن طريق الحلال ولكنه تعجله بطريق الحرام!! والغاش في البيع والشراء رزقه كان سيأتيه عن طريق الحلال ولكنه تعجله بطريق الحرام!! والذي حصل على وظيفة بالوساطة والمحسوبية رزقه كان سيأتيه عن طريق الحلال ولكنه تعجله بطريق الحرام!! وقس على ذلك كل طرق الكسب المحرمة والمنتشرة في المجتمع!!

أختم بهذه القصة الجميلة – في تحرى أكل الحلال – جاء رجل إلى الإمام الشافعي يشكو له ضيق حاله وأخبره أنه يعمل أجيرا بخمسة دراهم؛ وأن أجره لا يكفيه؛ فما كان من الشافعي إلا أن أمره أن يذهب إلى صاحب العمل ويطالبه بإنقاص أجره إلى أربعة دراهم بدلا من خمسة؛ وامتثل الرجل لأمر الشافعي رغم أنه لم يفهم سببه!!

وبعد فترة عاد الرجل إلى الشافعي وقال : لم يتحسن وضعي إنما مازالت المشكلة قائمة؛ فأمره الشافعي بالعودة إلى صاحب العمل وطلب إنقاص أجره إلى ثلاثة دراهم بدلا من أربعة دراهم.

ذهب الرجل ونفذ ما طلب منه الإمام الشافعي مندهشاً!!! وبعد فتره عاد الرجل إلى الشافعي وشكره على نصيحته؛ وأخبره أن الثلاثة دراهم أصبحت تغطي كل حوائجه وتفيض؛ بعدها سأله عن تفسير هذا الذي حدث معه؛ فأخبره الإمام الشافعي: أنه كان من البداية يعمل عملا لا يستحق عليه إلا ثلاثة دراهم وبالتالي الدرهمان الباقيان لم يكونا من حقه؛ وقد نزعا البركة عن بقية ماله عندما اختلط به.

وأنشد:

جمع الحرام على الحلال ليكثره ..... دخل الحرام على الحلال فبعثره

فيا من همك التوقيع في سجل الحضور والانصراف!! ويا من همك الدراهم والدنانير دون النظر إلى مصدرها!! ويا من تطعم أولادك حرام!! ويا من تراشي وتحابي رئيسك ومديرك من أجل هروبك من العمل وتقصيرك فيه؛ أو من أجل الوصول إلى وظيفة أو منصب أو جاه!! اتقوا الله ولا تطعموا أولادكم وأهليكم حراما.

وبعد: فهذه رسالة أوجهها إلى جميع آبائي وإخواني وأحبابي؛ وكل أفراد المجتمع؛ حبا لهم وإشفاقا عليهم من عذاب الله؛ اللهم إني قد بلغت اللهم فاشهد يا رب العالمين.

أسأل الله العلي العظيم أن يطيب كسبنا وكسبكم، وأن يصلح نياتنا ونياتكم، وأن يرزقنا وإياكم الرزق الحلال ويبارك لنا فيه، إنه سميع قريب مجيب.

كتبه : خادم الدعوة الإسلامية
د / خالد بدير بدوي